اغتراب الزمن وانشطار الذات قراءة في رواية نجوم أريحا لليانة بدر

الأستاذ: إيمان العامري
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات
جامعة سكيكدة – الجزائر

توطئة:

– يعد الاغتراب ظاهرة لها حضورها البارز في أدبنا العربي الحديث، فقد جمع العصر بين كثير من المتناقضات التي نتج عنها أزمات مختلفة، سياسية واجتماعية وفكرية وأخلاقية، أدت إلى حدوث صدمة هزت المبدع العربي، وكان لها تأثيرها البالغ عليه، فعكست التجربة الأدبية ألوانا من الشك والقلق المسيطر على الإنسان، كما عكست صورا من انعدام الثقة لدى المبدع في واقعه فالشعور بالاغتراب والغربة والحنين إلى الوطن، من أسمى المشاعر الإنسانية التي صورتها الآداب العالمية شعرا ونثرا، إذ يبلغ النص الأدبي أسمى مراتب الروعة عندما تفرزه التجربة الحقيقية، وقد عانى الفلسطيني خاصة الأديب من مستويات متعددة من الاغتراب، لما حل به من نكبات متعددة، وانتزاع قسري من الأرض، وتهجير عن الوطن، وما لاقاه من ضغوطات ومضايقات في البلدان التي نزل بها، إضافة إلى حالة القلق وعدم الاستقرار والشعور بالاقتلاع والضياع، وقد قابل ذلك بردات فعل مختلفة فتارة ينسحب من الواقع ليضع نفسه على هامش الحياة، وتارة يرضخ للواقع ويتعايش معه، وأحيانا نجده يتمرد على الواقع ويثور عليه، على المستوى الفردي أو الجماعي.

– وفي رواية (نجوم أريحا) لليانة بدر تبرز ظاهرة الاغتراب بمظاهرها المتعددة بصورة واضحة، على مستوى الشخصية والفكر والرؤية ، كأنها تمثل بذلك المأساة التي يعانيها كثير من أبناء الشعب الفلسطيني.

– تهدف هذه المداخلة إلى بحث ظاهرة الاغتراب الزماني في رواية نجوم أريحا لليانة بدر، باعتبارها تجسد معاناة الكاتبة وجزءا هاما من حياتها، فالرواية تمثل رحلة في ذاكرة الذات التي حاولت من خلالها الروائية سرد أحداث تجربتها الواقعية فهذه الرواية بمثابة رحلة في الذاكرة حاولت من خلالها الروائية سرد تجربتها الواقعية، واغترابها الاضطراري عن الوطن

وتشتتها عبر المنافي، وقد حملت هذه الذكريات في طياتها الكثير من مشاعر الحزن والقلق والتمزق، كما اتسمت بالشكوى المرة الموجعة التي جعلتها تعيش في ذكريات الوطن وترتد بذاكرتها لترتمي في أحضان ماضيها الطفولي السعيد المفعم بالحياة.

وقد حاولت هذه الدراسة تتبع مظاهر اغتراب الزمن وتجلياته في الرواية، وما عانته الشخصية الرئيسية وباقي الشخصيات من حالات اغترابية ، وانعكاسها على الحالة النفسية والشعورية للذات التي جسدتها الكاتبة تجسيدا فنيا متميزا كشف بوضوح عن طبيعة العلاقة بين عالم الواقع وعالم الحلم لدى الشخصيات وعما تتسم به من تعارض وتناقض وشعور بالإحباط والضياع والاغتراب.

– الاغتراب الزماني

– يعتبر الاغتراب الزماني من الأمور الغامضة، فالارتباط بين الإنسان والزمن أكثر غموضا من الارتباط بينه وبين المكان، وبالتالي فتأثيره النفسي عليه أكثر غموضا أيضا، فالإنسان قد يشاهد شيئا معينا أو يحس به بإحدى الحواس الخمس أو بأكثر من حاسة واحدة، بينما يحتاج الإحساس بالزمن إلى الحاسة الفكرية أو الذهنية[1].

– فهناك اختلاف بين إدراك الزمان وطريقة إدراك المكان، لأن الزمن يرتبط بالإدراك النفسي، أما المكان فيرتبط بالإدراك الحسي، وقد يسقط الإدراك النفسي على الأشياء المحسوسة لتوضيحها والتعبير عنها، فنلمس بذلك فعل الزمان على الأشياء المحسوسة من تدهور وهدم[2].

– ترتبط الشخصية بالزمن ارتباطا جدليا غامضا، يستمد غموضه من عمق الزمن ومرونته، إذ تثير مقولة الزمن جدلا عميقا باعتباره الوجه الآخر للكون، فهو محور الكون والحياة ومحور حياتنا الداخلية، والمحرك الخفي لمشاعرنا وتقلباتنا الجسدية والنفسية، "فالدورة الآلية التي تعيشها عقارب الساعة ليست الزمن الحقيقي الذي يسير على وتيرة واحدة بل تتغير سرعته تبعا لإيقاع واقعنا النفسي"[3]، فالحزن يبطئ الزمن والفرح بسرعة، ويحقق الإنسان وجوده داخل الزمن، إلا أن وجوده وحياته وأحداثه هو الذي يهب الزمن الحياة، ويضفي عليه الحركة، لأن تيار الزمن سيتوقف في عالم خال من الحياة "فالزمن هو دفق لا متناه من الأحداث هذا السيل هو التغيير الصادق عن ماهية الوجود، بل الوجود بعينه"[4].

– كما يشكل كل من الماضي والحاضر والمستقبل، الزمن الداخلي والخارجي للإنسان الذي يرتبط به ارتباطا عميقا يترك أثره في حياته، فالزمن ذو فعالية أي بمثابة شعور قوي يترك دوما أثره بغض النظر عن مدى سلبية أو إيجابية هذا الأثر، ففي حياتنا اليومية نكون دوما إزاء نقطتين أساسيتين الأولى هي "الآن" أو اللحظة الحالية، أما الأخرى فهي شعورنا بجريان الزمن وتدفقه من الماضي إلى المستقبل[5].

– فالإنسان يحقق مصيره داخل هذا الزمن الذي ينقسم إلى ماضي وحاضر، ورغم أن الماضي والمستقبل لا وجود لهما إلا في الحاضر، فهناك الماضي الذي كان ولم يعد له وجود وهناك الماضي الذي مازال باقيا ويكون جزء متكاملا من الحاضر، لأن الماضي الذي يعيش في ذاكرة الإنسان ماض مختلف تماما "فهو ماض متسامي وساعدت أفعالنا الإبداعية على إدخاله في حاضرنا إدخالا متكاملا، وليست الذاكرة مجرد احتفاظ أو بعث للماضي، وإنما تقتضي الذاكرة تجديدا خلاقا وتحولا مبدعا للماضي وهنا يتناقض الزمن"[6].

– كما يؤكد الفيلسوف "هنري برجسون" [Henri Bergson] على أن الذاكرة هي جوهر وجودنا، فهي امتداد للماضي في الحاضر وصيرورتهما معا، غير أن الحاضر ليس حصيلة تراكمات، إنما هو فعل نوعي وضرب من الابتكار المتجدد، كأن مسار الرحلة في الزمن، تنويع لنوتة موسيقية واحدة تبني جسورا بين المكان والزمان والماضي والحاضر[7].

– فالماضي الذي لا يعود عبر الزمن الموضوعي، استطاعت الذاكرة أن تعيده إلى الذات وتنتصر به على رتابة الزمن، ويمكننا بذلك دفع الزمن الموضوعي إلى الذات بواسطة العقل، "فالعقل ذاكرة والذاكرة زمن، فالعقل إذن زمن، والزمن يمكن جره إلى الذاكرة النفسانية الداخلية، وذلك عن طريق العقل، الذي هو بالتالي مقيد بالزمن الخطي من الخارج، ولهذا سيكون الزمن النفساني عندئذ داخليا"[8]. ويتجلى انتصار الزمن النفسي–باعتباره زمنا ذاتيا يقاس بالحالة الشعورية لصاحبه– "في قدرته على تجاوز الحدود الزمانية والتقسيمات الخارجية الموضوعية (الماضي، الحاضر والمستقبل) وبالتالي يمكن في لحظة واحدة آنية أن يمتلك الإنسان عدة أزمنة متفرقة وعدة أنوات"[9].

– ويعد الزمن عنصرا أساسيا هاما في تشكيل البنية الروائية وتجسيد رؤيتها فهو "يؤثر في العناصر الأخرى وينعكس عليها، الزمن حقيقة مجردة سائلة لا تظهر إلا من خلال مفعولها على العناصر الأخرى"[10].

– ففي الرواية الحديثة يشكل الزمن ركيزة أساسية من ركائز الإبداع بما يتضمنه من دلالات إيحائية وإشارات جمالية، تعبر عن رؤيا وأفكار ومشاعر، فزمن الشخصية الروائية زمن نفسي ذاتي يخضع لحركة اللاشعور، ومعطيات الحالة النفسية، ولا يقاس بمقياس الزمن الواقعي، بل يخضع في تحليله للحالات الشعورية التي تعيشها الشخصية في النص الروائي، لأنه زمن مطاطي، يخضع في تمدده وتقلصه للانفعال وللحالة النفسية والشعورية[11]، وذلك بعكس الرواية التقليدية التي تخضع بناء الشخصية لعوامل الزمن الخارجي من حيث نموها وحركتها وعلاقتها بالآخرين.

– كما يعد الحاضر في السرد الحديث منبع الزمن، الذي ينطلق منه الروائي لاستدعاء الذكريات وترهينها في اللحظة الحاضرة لاستشراف المستقبل؛ إذ أن الرؤية الجديدة للزمن الروائي تنكر أي تماثل أو انعكاس للزمن الواقعي، وتعد اللحظة التي يبدأ فيها الراوي السرد هي لحظة الحاضر التخييلي الآني على خط السرد لاسترجاع الماضي عبر الذاكرة أو باستخدام ومضات استباقية من خلال الحلم والتوقع والهواجس[12].

– وقد عمدت الروائية "ليانة بدر" في هذه الرواية إلى توظيف الزمن كإيقاع نفسي يستمد دلالته من ارتباطه بالحالة النفسية الداخلية للشخصية، فتنتقل من الحاضر زمن الخطاب إلى أزمنة أخرى، وخاصة الماضي لما يحمله من أثر في حياة الشخصية الآنية، إذ أن الشخصية تتأثر بالزمن وتؤثر به، فهي تتعايش مع الزمن وتدركه تبعا لحالتها النفسية والشعورية، فقد تلجأ إلى الماضي هروبا من الحاضر المتردي ثم تعود إلى المستقبل لاستشراف ما سيأتي عن طريق التوقع والحلم.

أولا : الهروب من الحاضر :

– يشكل الحاضر الذليل والواقع المرير الذي تعيشه الشخصية في المنفى أحد أهم أسباب اغترابها عن حاضرها، وارتدادها إلى الماضي علها تجد فيه عزاء يخفف وحشة الحاضر وغربته، إذ تعبر بطلة "نجوم أريحا" عن رؤيتها للزمن من خلال تجربة الاغتراب القسري عن الوطن وتشتتها في المنافي، فقد ولد المنفى بزمنه "الحاضر المرفوض" شرخا داخليا في "الذات" سبب لها قلقا وتمزقا وضياعا، خلق بدوره خلخلة في الزمن ليتجلى صوت الماضي صاخبا في زمن الشخصية الحاضر، "فالساردة" تعيش في الحاضر، ولكن حكايات الماضي تلح على ذاكرتها فتحكيها بتفاصيلها الصغيرة التي تسعى من خلالها إلى بعث

الماضي البعيد بآماله وآلامه ليخفف من بؤس الحاضر ومرارته الذي خلق بواقعه الموجع حالة اضطراب نفسي وفقدان التوازن الداخلي للبطلة، حيث فقد الزمن معناه في حاضر الشخصية واكتسى طابع الرتابة والملل، الذي عكس بوضوح الحالة النفسية والشعورية لهذه الذات "فالزمن النفسي لا يخضع لقياس الساعة مثلما يخضع الزمن الموضوعي وذلك باعتباره زمنا ذاتيا يقيسه صاحبه بحالته الشعورية "[13].

– فحالة الحزن والقلق التي سيطرت على حياة البطلة في المنفى جعلتها تعيش إشكالا واغترابا مع الزمن المعاش هناك حيث تتحول الحياة إلى مجرد أزمات أو مشاكل مستعصية الحل، يفقد الزمن قيمته في هذا المكان الذي يجسد معنى الشتات والضياع، ويتحول إلى عدو حقيقي للشخصية، يفتك بها ويقوض مضجعها، بل ويترك آثاره الكئيبة على جسدها وملامحها، وينعكس على حالتها النفسية والشعورية، فبعض الشخصيات في المنفى أخضعها الزمن لسطوته فاستسلمت له وانتهت بصور من صور الموت والعجز أمام قهره وقوته لأنها لم تستطع مواجهة الحاضر الكئيب المتردي في منفاها بعدما كانت تعيش في الماضي حياة مفعمة بالأمل والفرح.

– وتجسد صورة "أم سمير" إحدى شخصيات الرواية نموذجا واضحا، لحركة الزمن الذي ترك أثره على جسدها وروحها المفعمة بالحياة، لتتحول في الحاضر إلى جسد بلا روح، فاقدة الأمل في الحياة، تنتظر مستقبلها المجهول حين تحولت إلى "عمياء ضريرة فاقدة الحول، ليس لها صوت"[14] بعدما قتلت ابنتها، وشردت بعيدا عن وطنها على يد الاحتلال الصهيوني، كما لا يختلف حال زوجها عنها بكثير، ذلك الرجل الذي كان له في الماضي "هيبة الآباء التقليدين"[15]، لقد تحول في حاضره المهزوم إلى شخص عاجز عن مواجهة الواقع، فاختار الانعزال والانخراط في نشاطات أخرى تنسيه آلام الحاضر وغربته "بدا أبو سمير وكأن يد الزمن مسحت عليه فأحالته إلى لون الرماد تغير شعره فاحم السواد إلى ما يماثل وجهه الذي صار شبيها بالجير، إنه هو لكنه ليس نفسه"[16].

– وقد كان الإحساس بانهزام الحاضر وكآبته مصدر ألم وعذاب للذات التي استيقظت على واقع رهيب، يتسم بالرتابة والفشل في تحقيق كل ما من شأنه إسعادها، "فوالد الساردة" في الرواية لم يستطع مواجهة حاضره الذي فقد فيه معنى الحياة، في حاضر متردي خال من كل

معاني الفرح والأمل، لذلك اعتصم بشلله على سرير المستشفى، هروبا من غربة الزمن وقسوته.

– لكن هذا الزمن يرتبط بالمكان ويتماهى معه، إذ يجسد المنفى بكل جزئياته وفضاءاته اغتراب الزمن وتحجره الذي فشل في تحقيق التوازن النفسي والداخلي للشخصيات التي هربت منه واستغرقت في زمنها الذاتي الذي تغذيه الأحلام والذكريات، فالزمن في المنفى فقدان واغتراب وضياع، وخوف من المجهول القادم الذي يشكل الموت أحد كوابيسه، فأكثر ما تخشاه "الذات" في منفاها الموت بعيدا عن الأهل والوطن، إنه الإحساس الذي عاشته "الساردة" بعد موت صديقتها "غزالة" التي قضى عليها الزمن وحيدة ومبعدة، فتتساءل وتقول: "هل إننا جميعا نحن الذاهبين بعيدا نحمل المعنى ذاته؟ أي أننا سنكون موتى، أهلنا في البلاد لأنهم لم يستطيعوا رؤيتنا طالما ظل احتلال ومنفى وأبعاد؟"[17].

– إن الزمن في المنفى يصبح مرادفا للفقدان والموت في نظر "الذات" بعيدا عن الوطن والأهل الغائبين، ويحمل الزمن معنيين متناقضين في ارتباطه بالمكان، المنفى (اللإستقرار والخوف)، أما الوطن فهو (الاستقرار، الأمن)، فبطلة "نجوم أريحا" لم تفقد في منفاها قدرتها على الضحك والنوم بالسلام والأمن –المعهود في أريحا– فقط بل أن الحياة فقدت معناها في زمن المنفى واكتسبت معنى مختلف تماما، بعيدا عن الناس الذين تجمع بينهم علاقات المودة والصداقة، وعن الوطن الذي يعيش في ذاكرة الذات المتشبثة به، وقد كشف تحجر الحاضر وجموده إحساس "الساردة" بالزمن الذي يسير بطيئا ثقيلا في المنفى مجسدا معنى الضياع والاغتراب، وحس الفناء الذي ينخر الروح والجسد إنه "الانقراض المتدرج لبهجة الإحساس بالحياة في كل يوم جديد"[18]، ففراغ الحياة وخلوها من المعنى وانعدام التجديد فيها، زاد من حدة الإحساس برهبة الزمن ومعاناته حين تغطيه الكآبة والرتابة، فالزمن تتباطأ دقاته وتتمدد في الحزن، لتتسارع وتتقلص في أوقات الفرح والسعادة، لأنه مرتبط بالحالة الشعورية "للذات"، فطابع الرتابة والملل الذي يكتسي حياة "الساردة" في المنفى، جعلها تستشعر غربة الزمن وثقله الذي فقد حيويته وتدفقه كونه زمنا ذاتيا يستوطن الروح ويخضع لتيار النفس الداخلي القائم على الخيال واللاشعور.

– وكما ترى "فرجينيا ولف" فان الدقيقة قد تصبح ساعة وقد تصبح الساعة دقيقة، متى أقام الزمن في عنصر الروح العجيب[19]، إذ تعبر "الساردة" في الرواية عن موقفها من الزمن

فتقول "أشتبه في معنى السنوات الطويلة التي قضيناها في الخارج"[20]، فالزمن يتجسد حسيا (طويلا وثقيلا)، لأنه يرتبط بمكان تكرهه "الذات" وتنفر منه، كالراهب الذي يحكي "عن ليله الطويل الموحش"[21] في أرض مقدسة لكنها بعيدة عن أرضه، وكذلك المبعدون عن أوطانهم الذين "يجرجرون خطواتهم البطيئة وسنوات عمرهم الثقيلة"[22] فهذا الوصف يجسد بوضوح غربة الزمن وثقله الذي يعزف أوتاره على إيقاع النفس، ويؤكد "باشلار" في هذا الصدد أننا نرغب في تجسيد الزمان ماديا، وفي الفواصل الزمنية التي تقيس تخلفاتنا عندما نكون مشدودين إلى ملكوت مكان مكروه[23].

– فالزمن في المنفى يتحول إلى عدو للشخصية يترك آثاره العميقة على جسدها ونفسيتها ويحاول إخضاعها وسلبها ذاتها وهويتها، كما أن الإحساس بالحاضر ومعاناته يولد في النفس شعورا بالكآبة والثقل الذي يعكس رتابة الواقع ومرارته، وخلوه مما يرغب النفس في الحياة التي تسير بإيقاع ثابت رتيب، فلا شيء يربط بين الناس سوى أنهم غرباء "أتأمل السحنات المنوعة في بلدان شتى وأعبد كل وجه إلى أصله، أراقب ملامح الأقرباء في قسمات غريبة، وأفتش عن هيئة أليفة وسط طرق بعيدة"[24].

– ولكن "هذه الذات" التي تدرك عقم الحاضر السردي المتردي وتمزقه لا تركن إليه، فتستعين بالماضي والمستقبل، لتكسر رتابة الحاضر وجموده، وتخلق خلخلة في حركة الزمن المنتظم، يتجسد من خلالها صراع الذات مع الزمن ضد الفناء.

ثانيا / العودة إلى الماضي (زمن الذاكرة):

– يحتل الماضي في هذه الرواية مساحة كبيرة وهامة، تطغى على الحاضر السردي الذي تضيق مساحته مقارنة بهذا الماضي، لأنه يعد "عاملا أساسيا ومهما في تكوين الشخصية الفكري والجسدي، لما يختزنه من ذكريات ومواقف تلعب دورا مهما في التأثير على حركة الشخصية في زمنها الحاضر والسيطرة على المستقبل"[25].

– وتزداد سطوة الماضي وأهميته في النفس، كلما اشتد رفض الذات للواقع المعاش، إذ يرى "باشلار" أننا لا نعترف بالواقع عندما نستغرق في الذكريات المطبوعة في النفس[26]، هذه الذكريات التي تلوذ بها "الذات" هروبا من قسوة واقعها، فالإحساس بمرارة الحاضر الذي يجسد الخذلان والهزيمة، يدفع الشخصية باتجاه الماضي بآلامه وآماله، ليشكل ذلك نوعا من المراوغة التي يلعبها الزمن حين يظهر في الحاضر ثم يهرب إلى الماضي بفعل الذاكرة التي

يرى "برجسون" أنها "أساس الوجود وجوهره، فهي امتداد الماضي في الحاضر، وصيرورتها معا لتشكيل الكيان الواحد، حيث لا يمكن فصل الإحساس المباشر في لحظة الحاضر عن الذاكرة (الماضي)"[27]، فالحاضر لا يحظى بمركزية الزمن واهتمامه، عدا كونه محطة انتقال عبر الزمنين (الماضي والمستقبل) كما يؤكد "برجسون" في هذا الصدد أن ما نشهده ليس إلا الماضي، أما الحاضر فهو مجرد عمليات غير مرئية، تقودنا إلى الماضي ومن ثم إلى المستقبل[28]، وينقسم هذا الماضي في الرواية إلى نوعين، أحدهما سعيد متألق يمثله "زمن الطفولة "، والآخر أليم متعب يجسده "زمن الهزيمة " حيث الضياع النهائي للوطن والتشتت في المنافي.

أ)-الماضي البعيد "زمن الطفولة":

– تجسد مرحلة الطفولة الزمن البعيد المتألق، حيث الوطن المفقود وأريحا ونجومها المتلألئة، وذكرياتها الحميمية التي ترسخ في الذاكرة إذ أن أكثر الذكريات التصاقا بالنفس وأكثر قربا منها، وأشدها عليه، في بعث الفرح ومواجهة حسن الفناء الذي لازم الذات نتيجة إحباطات الحاضر هي ذكريات زمن الطفولة فهي مرحلة البراءة والنقاء التي لم يتم التصادم فيها بين الذات والواقع المرير، واستحضار زمن الطفولة البريء تدفع إليه خيبة الحاضر وآلامه، لأن "الساردة " في الرواية لم تستطع أن تتكيف مع زمن المنفى الرديء، لتجد بذلك في "زمن الطفولة" منقذا لها من شر الزمان وإحساس الفناء الذي يعذبها، وكأنها بالعودة إلى الطفولة تتحدى الزمن وتعود به إلى الوراء لتعيش من جديد زمنها المشبع بالرغبة في الحياة، فيظل في حالة انبعاث دائم رغم تعاقب الزمان، وهذا "الزمن المستعاد ليس محاولة لتفسير الماضي والمستقبل فحسب، وإنما يمثل هذا العمل انتصارا حقيقيا على شر الزمان"[29]، حيث تعود "الساردة" بذاكرتها إلى ذلك الماضي البعيد، الذي ترسخ صوره في الذاكرة، ويأبى إلا أن ينبعث من جديد في حاضرها الأليم المغلف بالكآبة والملل، بشكل جعل صورة الطفولة والصبا ترافقها في أغلب فصول الرواية.

– وتعد اللغة محفزا للذاكرة لاسترجاع هذا الماضي الهارب، "فقد تقال لفظة ما تعمل على إثارة الذاكرة لتقوم بعملية استدعاء الماضي في لحظة الحاضر"[30]، فحين تتذكر الساردة "يوم الجمعة" وتتلفظ به، تنفجر بداخلها ذكرى الماضي البعيد حين كانت طفلة تذهب إلى بيت

عمتها في القدس، التي كانت "تبرع في تتبيل حشوة الرز بالبهارات زكية الرائحة، والتوابل التي ستزين ضلع الخروف الذي يجلب ليلة وقفة العيد من دكان "عكة" الجزار"[31].

– وتواصل "الساردة" استغراقها في الذكريات الطفولية البريئة، وتتذكر مغامراتها في بيت "أم فضل" حيث اطلعت على كل أنواع السحر والشعوذة التي تمارسها هذه الأخيرة وتؤمن بها "لا تستطيع أمي أن تمنع استغراقي داخل التعويذات الغريبة التي تتلوها أم فضل بصوت أحبش ... أدخل في اللعبة شاعرة بفخر لا مثيل له، فقد أصبحت مؤتمنة على فصول من السحر الأسود بل ومشاركة فيه"[32]، كما يعاودها الحنين إلى صور طفولتها السعيدة المشبعة بالفرح في بيت "أبي سمير" حيث زمن "مرمرة" و"بستان الأحلام" انه "بستان فسيح لا نهاية لحدود، ... والمهم قبل كل هذا أولاد العائلة الكثيرون وبينهم طفلة تماثلني سنا، لا أحد سيلحقنا لكي يراقب ما سوف نفعله أو المدى الذي أصل إليه"[33].

– إنها فترة الطفولة حيث البراءة والانطلاق لاكتشاف كل ما هو جديد ومثير والمغامرات التي لا تنتهي، لا مكان للحزن والألم والاصطدام بالواقع المرير "فترة سرمدية مليئة بالحماس، مهيئة دائما للدهشة أم الاكتشافات، يعيش خلالها الطفل في نوع من الأبدية المسحورة خارج أسوار الزمن"[34]، فالطفولة التي يعيش فيها الإنسان فوق الزمن وحدها قادرة على مواساة "الذات" وتحفيزها لمواجهة الواقع المغترب والحاضر البائس.

– كما تستعيد "الساردة" صور علاقتها بوالديها أيضا وهي علاقة مضطربة نوعا ما كما يتضح ذلك في الرواية، فقد تكونت هذه "الذات" في نطاق أسري مضطرب كان اعتقال الأب وسجنه أحد أسبابه المباشرة، إلى جانب انشغال الأم الدائم بعملها ثم موتها المبكر الذي ترك في نفس "الساردة" حزنا عميقا وفراقا كبيرا "أصابها مرض قاتل لم يبقي منها خلال بضعة سنوات إلا موعد الموت... ذهبت أمي عندما اشتد عود صداقتي معها"[35].

– ورغم مرارة بعض ذكريات الطفولة وقسوتها أحيانا إلا أنها تبقى أكثر ألفة وحميمية مقارنة بمعاناة الحاضر وكآبته، تمضي أيامه مكررة متشابهة تجسد معنى الضياع والشعور الدائم بعدم الانتماء إلى المكان، ولذلك تشغل صور الطفولة حيزا كبيرا في الرواية وتستمر حتى نهايتها حيث تتداخل الأزمنة وتتمازج تبعا لإيقاع الزمن النفسي الداخلي للشخصية.

– وفي الفصل الأخير ينبعث هذا الماضي بصيغة الحاضر ويستأثر السرد بصيغة الفعل المضارع الذي يعبر عن العودة إلى الزمن الطفولي البريء "على حافة العين جلست

أمي وأسندت رأسي إلى حضنها... ألوذ بحضن أمي"[36]، إنه الزمن المفقود زمن (الأم/الوطن) الذي يحيا في "ذاكرة الذات" التي تستعيده ليكون ملاذها الحقيقي من غربة الحاضر وعدميته، تأتلف معه ائتلافا حميما، ليمدها بشعور الألفة والوداعة ويعيدها إلى حضن (الأم/الوطن) الدافئ.

– لقد حقق هذا الزمن بمختلف صوره وأحداثه تلاحما حقيقيا مع فضاءات السرد (القدس، أريحا ...) التي تلح "الساردة" على رسم معالمها وبنيانها بصورة (لموقع، البنايات، النباتات ...) وترمي بذلك إلى تثبيت واقعيته التاريخية والجغرافية وترسيخه في الذاكرة المبعدة عنه، فالفضاء هنا جزء من الذاكرة الطفولية ومن ثوابت الاستذكار، بل وأحيانا لا يتم الاستذكار إلا في ارتباطه بالفضاء الذي يحيط بالذكريات.

– ولكن الذاكرة المتبعثرة في كل الاتجاهات لا تركن إلى هذا الماضي البعيد وتقف عنده، إذ تستعيد صور ماضي آخر مختلف عمن سابقه، إنه ماض قريب يفضي إلى معاناة الواقع الذي تعايشه "الذات" في حاضرها.

ب)–الماضي القريب (زمن الهزيمة 1967):

– يشكل هذا الماضي الأليم منعطفا حاسما في حياة البطلة التي شهدت تحولا جذريا وفاصلا بين زمنين (الوطن/الاستقرار)، (المنفى/الضياع) بين ماض ولى وانقضى لا يعيش إلا في الذاكرة، وحاضر تعيشه الذات واقعيا في المنفى "منذ 1967 وطعم الانتصار يتكشف في الحلق متحولا إلى ما يشبه النبيذ المعتق... حرقة عميقة ناتجة من الزمن الطويل، وبرود ليشعل الذاكرة لشدة البعاد"[37].

– تستحضر "الساردة" في الفصل الثامن من الرواية (حجر رصاص 1967) أحداث هذا الماضي الذي يجسد حكايتها وحكاية شعبها؛ إذ يعد زمن النكسة سنة 1967 من أبرز المؤشرات الزمنية الحكائية التي حفظتها الذاكرة واستدلت عليه "الساردة" بوضوح في الرواية "كان ذلك في العام السابع والستين بعد الألف والتسعمائة من زمن أريحا، وكان ذلك هو الزمن الأخير الذي عشنا، قبل أن تفتتح أرواحنا السجل المخطوط بكلمة بلاء"[38]، تعاود الذاكرة معايشته واستحضار صوره في الحاضر محاولة فهم أحداثه واستيعابها "الأبواق تزعق، الصرخات تندلع، صفارات الدفاع المدني تناشد إطفاء الأنوار... منذ الصباح.....أعداد الطائرات الساقطة"[39] فهي تعبر من خلال هذا الماضي عن واقع تاريخي وسياسي يجسد

معاناة الفلسطينيين خلال الاحتلال هلع وخوف وموت في كل مكان، إنه الماضي الذي تهرب منه "الذات" لكنه يلاحقها، فهو الزمن الذي تحول الوطن بعده إلى صور ترويها الذاكرة التي تطغى على الحاضر السردي للرواية وتضيق مساحته، وكأن الزمن في المنفى انعكاس لصورة الوطن وذكرياته، لان "الذات" تستغرق في ذكريات الماضي وتبعثها في الحاضر، هروبا من آلامه ومرارته التي تجسد خسارة الوطن والاغتراب في المنفى، إنها تستمد من الماضي دعما روحيا يعينها على معايشة حاضرها وخلق عالم جديد تعكس عليه طموحاتها وآمالها.

ثالثا: التوقع والحلم:

– يعد الحلم وسيلة من وسائل الذات المضطربة للهروب من مخاوفها، وتجاوز واقعها الذي تعجز فيه عن تحقيق طموحاتها، إذ تكشف الأحلام والهذيانات "الاهتزاز العميق لروح فقدت الأمان، وإذا ما كانت الشخصية تحاول أن تبدو منسجمة وطبيعية في صحوها فإن الحلم يكشف استحالة المحاولة لذات دمرها واقعها واغتربت عن هاجس حريتها"[40].

– وقد تلجأ "الذات" إلى الحلم لأنها لا تستطيع معايشة الواقع بصورته التي هو عليها، فبطلة الرواية تمارس الحلم كوسيلة تمكنها من كشف المستقبل وتوقع أحداثه، لتنتصر به على رهبة الزمن وغموضه، والتطلع إلى المستقبل هو إحدى وسائلها لمعايشة الواقع في المنفى "أضفت إلى المهارات الجديدة التي اكتسبتها بسبب تعدد المنافي وتغيير الأمكنة التطلع إلى المستقبل"[41] لقد تحول الحلم إلى أداة لمواجهة مرارة العيش في المنفى وخيبة واقعه، فهذه "الذات" لا تركن إلى الحاضر ولا تستكين بالخضوع إليه، منحها ذلك قوة ذهنية مكنتها من استجلاء الحدث وتوقعه، وهكذا رأت نفسها يوما "واقفة أمام رصيف بحري ترسو عليه سفينة كبيرة"[42] منذ ذلك الحين باتت فريسة الاعتقاد بظهور السفينة التي ستحملها إلى الوطن مع باقي المبعدين، وكانت رحلة العودة التي ستنطلق من اليونان، لكن الحلم الذي كشف لها "سفينة العودة" تراءى لها مرة أخرى قبل بداية الرحلة ليكشف المصير المرعب الذي تنتظره "حلمت مرة أخرى أنني أرى السفينة بأشرعتها الألف ومجاديفها الخشبية، رأيت مسمارا صدئا مغطى بطبقة من الصدأ الزنجاري الأخضر، كان هناك في القاع فأر يقرض ألواح السفينة، يثقب بأسنانه المدببة الصغيرة مفاصلها و أوصالها ..."[43].

– ولم يكن مستغربا أن تستيقظ صباحا على وقع الخبر الفاجعة بانفجار السفينة في الميناء قبل أن تصل إلى ركابها، فتحطم الحلم على صخرة الواقع، لكنه بعث في "الذات" أملا بالعودة يوما إلى الوطن.

– أما بالنسبة "لغزالة" وهي إحدى شخصيات الرواية التي عانت من مرض مزمن جعلها تمضي حياتها متنقلة بين عيادات الأطباء، الذين لم يعترفوا بفرصتها في الحياة الطويلة بقدر ما منحوها التعايش مع الأمل والأدوية، فإنها تهرب إلى الحلم حين تواجه الموت "أحسست فعلا خلال الحمى بأنني أتحول إلى شجرة لوز ربيعية، خفقت أطرافي بذبيب الجذور التي كانت تنبثق مني، ودق قلبي حاملا النسغ إلى شتى أرجاء جسمي، لم يبقى سوى أن أمد أصابعي إلى شعري كي يسقط نوار اللوز الزهري المضيء"[44]، فهذه الشخصية تعشق الحياة التي لا تتوفر لها في الواقع، لذلك تلجأ إلى الحلم محاولة الإفلات من قبضة الزمن الهارب بالحياة عندما تتحول إلى شجرة لوز في أوج ربيعها، لان الخوف من الزمن (المستقبل) هو خوف من الموت الذي لا ينفصل عن الزمان ويقع داخل إطاره، اذ يتحول الموت في المنفى إلى هاجس يؤرق الشخصية ويهدد أمنها واستقرارها الداخلي، خوفا بأن يقضي عليها بعيدا عن الأهل والوطن، وتتساءل البطلة في الرواية عن المصير المرعب الذي ينتظر المبعدين خارج الوطن لاسيما بعد موت "غزالة" صديقتها المقربة "أهي غزالة التي مضت وحدها أم أننا البعيدون الذين تتحرك إلى حافة الكون بعيدا عن مركزه؟"[45].

– تلجأ "الذات" إلى الحلم لتواجه به اغتراب المكان (المنفى) وزمنه المشبع بحس الفناء، فتشبه نفسها بالقطط التي تحمل سبعة أرواح تستطيع بها مواجهة التنقل المستمر عبر المنافي الذي خلق في نفسها اضطرابا واهتزازا داخليا عميقا بعيدا عن أريحا "إنني لم أتمكن من العيش المتواصل أو الموت المتصل، لذا حصلت على حيوات متقطعة، تنبثر الواحدة فيها فجأة وتنحدر إلى قعر الهاوية لتبدأ بعدها من جديد دورة حياة أخرى"[46]

– يكشف هذا الحلم عن رؤية فلسفية عميقة للحياة والزمن لهذه "الذات" التي دفعتها معاناة للاغتراب في المنفى إلى البحث عن المتعة في عمق الألم ذاته.

ومن خلال دراستنا لرواية "نجوم أريحا" توصلنا إلى النتائج الآتية:

1– تدخل ظاهرة الاغتراب في نسيج واقعنا الإنساني والاجتماعي والنفسي، وإن كنا لا نعيها بشكل مباشر إلا أن فعلها يبقى مؤثرا وجوهريا في مجتمعاتنا عموما، وما تلك المحاولات

التي بذلت لتوضيح مفهومها وأسبابها إلا تعبير بسيط عن جوهر الإنسان المعقد وكيف يمكن لظروف مختلفة، بإرادتنا أو خارج إرادتنا أن تدفعنا للابتعاد عن جوهرنا بطريقة أو بأخرى.

2–تجسدت علاقة الشخصية بالمكان تجسيدا مميزا، فقد طغى على الرواية الإحساس بفقدان (المكان/الوطن)، والاغتراب والضياع في (اللامكان/المنفى)، إذ يكاد المكان أن يكون الشخصية الرئيسية في هذه الرواية. لأنه يحمل قدسية خاصة لدى من تشردوا رغما عنهم، فهو الدلالة والعلامة الفارقة الذي يعين اتجاه العودة، إنه المكان الأصلي الذي تحن إليه الشخصية المغتربة بعيدا عنه، يجتاحها الحنين إلى ذكرياته التي تنبعث صورها في المنفى حيث يجسد هذا الأخير معنى الفقد والضياع الذي تعيشه الذات بعيدا عن الوطن رمز الهوية والكينونة.

3–عملت الكاتبة على كسر الزمن وخلخلة إيقاعه المنتظم بسبب تشتت الشخصيات وتبعثرها عبر المنافي، حيث تعيش الشخصية حالة اغتراب والزمن المعيش المرتبط بالمكان المنفى؛ إذ يتباين موقفها من الزمن فهي تهرب من حاضرها الأليم لتتردى بذاكرتها إلى أحضان الماضي البعيد، ولا تغفل مع ذلك أحداث الماضي القريب الذي كان زمنا فاصلا فقدت فيه الذات الوطن نهائيا، ليشكل بدوره حاضرا مهزوما مغتربا جعلها تهرب منه نحو المستقبل عبر التوقع والحلم، محاولة تجاوز خيبة الحاضر ورتابته.

4–استخدمت الروائية لغة بسيطة، عميقة، شاعرية وموحية، مليئة بالقلق ومشبعة بالتوتر والتمزق الإنساني ناقلة لنا الواقع الاغترابي المأساوي الذي تعيشه الشخصيات، وهو ما يكشف عن مهارة لغوية متقنة تجيدها الكاتبة وتستطيع من خلالها تحقيق التواصل مع القارئ وتفاعله مع أحداث الرواية.

5– جسدت الرواية حضور الوطن الذي حل في جسد المنفى، عندما تلاشت الحدود المكانية والزمانية لينبعث الماضي في الحاضر التخييلي وتتجلى "أريحا" مرئية بوضوح "إنني أراها وأحلف أني أشهد كل أركانها زواياها، أزقتها، بيوتها، أسطحتها، وخباياها من بقعة الرمل الصغيرة التي أقف عليها..."[47]، وعندها يظهر الوطن المفقود ويولد في الزمن الروائي التخييلي، لتقف "الساردة" في آخر الرواية على شاطئ تونس البحري تنتظر نجوم أريحا لتطل على حافة ذلك الصباح.

الهوامش:

1- أنظر، يحي العبد الله، الاغتراب، دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص 28.

2- أنظر، سيزا قاسم، بناء الرواية، بناء الرواية (دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، (د.ط)، 1984 ص 76.

3- مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004، ص 15.

4- عبد اللطيف صديقي، الزمان وأبعاده وبنيته، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1995، ص 125.

5- أنظر، عبد اللطيف صديقي، الزمان وأبعاده وبنيته، ص 40.

6- نيقولا ي برديائف، العزلة والمجتمع، ترجمة/فؤاد كامل عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، (د.ط)، 1976، ص 122.

7- أنظر، يحي العبد الله، الاغتراب، ص 192.

8- عبد اللطيف صديقي، الزمان وأبعاده وبنيته، ص 147.

9- مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية، ص 24.

10- سيزا قاسم، بناء الروائية، ص 27.

11- أنظر، مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية، ص 150.

12- المرجع نفسه، ص 45.

13- مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية، ص 23.

14- الرواية، ص 200.

15- المصدر نفسه، ص 167.

16- م.ن، ص 199.

17- الرواية، ص 97.

18- المصدر نفسه، ص 50.

19– قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، ص 320، نقلا عن هانز ميرهوف، الزمن في الأدب، تر/أسعد رزق، مؤسسة سجل العرب، القاهرة 1964، ص (17–20).

20– الرواية، ص 50.

21– مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية، ص 44.

22– المرجع نفسه، ص 64.

23– أنظر، غاستون باشلار، جدلية الزمن، تر/خليل أحمد خليل، ص 41.

24– الرواية، ص 188.

25– مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية، ص 159.

26– غاستون باشلار، جدلية الزمن، تر/خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، ط3، 1996، ص 14.

27– المرجع السابق، ص 24.

28– أنظر، عبد اللطيف الصديقي، الزمان أبعاده وبنيته، ص 35.

29– نيقولاي برديائف، العزلة والمجتمع، تر/فؤاد كامل، ص 127.

30– مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية، ص 203.

31– الرواية، ص 21.

32– المصدر نفسه، ص 102.

33– م.ن، ص 162.

34– قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، ص 371.

35– الرواية، ص 68.

36– المصدر نفسه، ص 212.

37– الرواية ص 180.

38– المصدر نفسه، ص 177.

39– م.ن، ص 173.

40– يحي العبد الله، الاغتراب، ص 202.

41– الرواية، ص 41.

42- الرواية، ص 42.

43- المصدر نفسه ص 63.

44- الرواية، ص 89.

45- المصدر نفسه، ص 97.

46 - م.ن، ص 96.

47 -الرواية، ص 234.